

الضوابط المنهجية والقضايا العلمية لإعادة قراءة القرآن الكريم: (إعادة قراءة القرآن) لجاك بيرك (1910-1995م) نموذجا

عبد الرحيم الإسماعيلي الدكالي
مؤسسة دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية
الرباط المملكة المغربية

Abstract:

I was born contemporary Qur'anic text readings in light of the decline of the classical, and the intensification of attacks neglect and marginalization against them. Both of which began in the midst of the prevalence trends (modernism), or the spread of trends (postmodern), both directions share the starting point of the disarmament of holiness for the Quranic text.

Keywords:

Orientalist -translation- contemporary Qur'anic - religion- modernism

لقد ولدت القراءات المعاصرة¹ للنص القرآني في ظل انحسار الفصحى، واشتداد هجمات الإهمال والتمهيش ضدها. سواء منها ما انطلق في غمرة شيوع اتجاهات (الحداثة) أو انتشار اتجاهات (ما بعد الحداثة)، فكلا الاتجاهين يشتركان في نقطة الانطلاق من نزع القداسة عن النص القرآني، حقيقة أو تقديرًا، واعتبارًا. ومبدأ نزع القداسة عن النص القرآني مبدأ قديم، تمتد جذوره التاريخية في تراثنا الإسلامي في العصور الأولى. ولعل قضية (خلق القرآن) التي روج لها المعتزلة قديما انعكاس من انعكاسات ذلك المبدأ، ومظهر من مظاهره. وكل الجدل الذي دار حول تفاصيل ذلك المبدأ، وما يتصل به يشير إلى آثار ذلك المبدأ في مختلف أنواع الدراسات القرآنية.

لقد ألف ابن قتيبة (ت276هـ) (تأويل مشكل القرآن)، وكان مقصده نسف الشبهات التي روج لها أعداء هذا الدين. غير أن ذلك لم يشف غليل الجاحظ (ت255هـ) فألف (نظم القرآن). وهو بدوره لم ير هذا التوجه وافيا (لتزيه القرآن عن المطاعن)، وهو العنوان الذي اختاره القاضي عبد الجبار الهمداني (ت415هـ) لكتابه بعد ذلك. وكذلك صنيع أبي بكر الباقلائي (402هـ) حيث انتصر للقرآن انتصارا كبيرا... إلا أن ذلك لم يقف حصنا منيعا أمام أعداء هذا الدين. حيث تضاعفت جهود المستشرقين خدمة لأغراضهم ومقاصدهم الذاتية والموضوعية، فكثرت تأليفهم حول النص القرآني، مما سيوجه في اعتقادي رواد القراءات المعاصرة للقرآن الكريم للاهتمام بهذا اللون من التأليف.

لهذا يمكن القول، إن القراءات المعاصرة للقرآن الكريم، جاءت ضمن سياق تجديدي إسلامي، وغير إسلامي قدمها إصلاحيون عرفوا بالالتزام بالإسلام منطلقا لتجديد بناء الأمة، وإحياء فاعليتها، ووضعها على طريق التجديد والاجتهاد. وكانت هذه القراءات المختلفة للنص القرآني تنطلق من بعد كوني، ذلك أن تفسير القرآن الكريم لابد أن يكون متجددا في كل عصر؛ ولأن أهل كل عصر مطالبون بأن ينظروا للقرآن الكريم، كما لو نزل في عصرهم وفهم. وذلك يقتضي أن يكون لهم فهمهم وتفسيرهم، وأن لا يفرضوا على أنفسهم تفسيرات غيرهم، وفق ضوابط شرعية لا كيفما اتفق. لأن ذلك الالتزام قد يحرمهم من اكتشاف علاقة القرآن المجيد الوثيقة بهم وبقضايا عصرهم. أما أصحاب المشاريع الأخرى التغييرية التي اختلفت مرجعيتها وبنيت على غير الإسلام، فقد حاولت تقديم تأويلات وتفسيرات تسمح بتوظيف النص لتبرير مشاريعها الفكرية. وهي تأويلات فاسدة. إن الجهود التأسيسية للقراءات المعاصرة للقرآن الكريم في نظري، كما وجدت إرهاباتها الأولى في الفكر الإسلامي مع المعتزلة، وجدت أيضا صداها بقوة أيضا في الدراسات الاستشراقية التي انصرفت لتناول كتاب الله عز وجل، دراسة، وترجمة، وتفسيرا. لهذا وبعد ركود الحركة العلمية والفكرية لمدة من الزمن، جاد الله بجيل من العلماء، تركوا أثرا محمودا في تاريخ الإسلام. نذكر منهم الشيخ محمد عبده² وجهوده الإصلاحية والتجديدية. لقد كان الرجل ذا وعي ملحوظ في اهتمامه بالتراث العربي، فقد درس كتاب الله عز وجل، ودرس التراث الإسلامي جيدا، وخبر بإحساسه المرهف، تراث عبد القاهر الجرجاني (ت475هـ) من خلال (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)...الخ.

إن شعور الشيخ محمد عبده بضغط العقل الحديث، وتزاحم الأسئلة المرحجة في ذهنه، سيما التي واجهت العقل الديني على المستوى الإنساني؛ أسهمت في تطور القراءات المعاصرة للنص القرآني، ومنها القراءات الأدبية لكتاب الله عز وجل. و في اعتقادي أن هاته الجهود العلمية حاولت بإخلاص ملحوظ، أن تغير طبيعة التفكير لدى القارئ المعاصر للقرآن الكريم، وعلى رأسهم تلامذته؛ كالشيخ رشيد رضا، والشيخ أمين الخولي³، وزوجه عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، وشكري عياد، ومحمد أحمد خلف الله.

ثم جاء بعدهم جيل آخر، تشبعوا بالثقافة الغربية، وبقواعد علم الاجتماع، والمناهج الفلسفية، والأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم، وانهمروا بها، فحاولوا إسقاط ذلك على كتاب الله عز وجل. ومن ثم اهتموا بالنص القرآني اهتماما غريبا جدا. قلت، ومن أهم رواد هذا الجيل، محمد عابد الجابري⁴ ومحمد أركون⁵، ونصر حامد أبو زيد⁶، والصادق النهوم⁷، وعبد المجيد الشرفي⁸، وغيرهم كثير.

لقد كانت جهود هؤلاء الأعلام والمفكرين في القراءات المعاصرة للقرآن الكريم، تنهل من أسس مرجعية مشتركة، أقل ما يقال عنها؛ إنها شطحات ذاتية. ومن هاته الأسس المرجعية؛ التاريخية بالنسبة لمحمد أركون، والصادق النهوم وغيرهما، ثم التأويلية، وقد تجلت في تراث عبد المجيد الشرفي، ومحمد عابد الجابري، ومحمد أركون، ونصر حامد أبو زيد...، وكذلك عقلنة النص القرآني التي سيطرت على فكر عابد الجابري ردحا من الزمن. ونفس الأمر مع مناهج العلوم الإنسانية⁹ المختلفة، أو غيرها من النظريات المستحدثة في تحليل الخطاب، والتي انعكس صداها على النص القرآني. وفي هذا السياق، لانكاد نحصر مفهوم القراءات المعاصرة

للقرآن الكريم، وأنواعها المختلفة الممتدة في التاريخ. ومن هاته الأنواع؛ ترجمات القرآن الكريم كتوجه في القراءات المعاصرة للنص القرآني؛ من أجل تبين العلاقة القوية بينهما¹⁰. إن ترجمة معاني القرآني الكريم كثيرة جدا، سواء عند المسلمين أو عند غيرهم، بعضها سمح بالاطلاع عليه، وبعضها حورب حتى لا يطلع عليه أحد، ولذلك أسباب خاصة¹¹. ومن ثم ضاعت هاته الترجمة، كما ضاع جزء من التراث الإسلامي إبان الحروب التي تعاقبت على الدول الإسلامية ثم توالى الترجمات خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر باللغات اللاتينية. ومن أهمها الترجمة الانجليزية للقرآن الكريم¹² للمستشرق جورج سيل¹³، وهي من أواخر الترجمات الأوروبية وأهمها. ثم نشطت الدراسات الاستشراقية المتخصصة في الدراسات القرآنية، فأنارت عند الإنسان الغربي تساؤلات كثيرة تخص تاريخ القرآن الكريم وعلموه، ناسخه ومنسوخه، وأسباب نزوله، وجمعه وترتيبه، وقراءته، وأهم مسائله التاريخية.... وغير ذلك).

هذا وقد ظهرت في العصر الحديث مجموعة من الدراسات الاستشراقية، اهتمت بتاريخ القرآن وتدوينه، وقد تجنت عن كتاب الله عز وجل إلى حد كبير. نذكر منها أول متخصص في الترجمة الفرنسية هو المستشرق الفرنسي بوتيه (1800-1883م) حيث عكف على هذه الدراسة، فبحث أثر النص القرآني على الديانات السابقة، وحاول تفسير الظروف التي أحاطت بنزول القرآن الكريم وغايته. كما بحث في الحضارة الإسلامية من خلال توجيه النظر إلى نشأة المذاهب الإسلامية. ثم نشط الاستشراق في ألمانيا من خلال أعمال المستشرق جوستاف فايل (1808-1889م) الذي ألف كتابا سماه: (مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن)، فأتى بقضية تقسيم السور المكية إلى ثلاث مجموعات، فكانت هذه الإشكالية، حسب وجهة نظري بداية لمشروع كبير طبقه (تيودور نولدكه) بعده¹⁴. ثم جاء شيخ المستشرقين الألمان تيودور نولدكه (Theodor

(Noldeke) (1836-1930م) فكتب كتابا ضخما سماه: (تاريخ القرآن) وللكتاب قصة في تأليفه.¹⁵

ومن أهم الأسباب التي مكنت (نولدكه) من بلوغ تلك المكانة العلمية، وتلك الشهرة التي حظي بها في حياته وبعد مماته؛ اطلاعه الواسع على أهم المخطوطات في اللغات السامية، وانكبابه على دراسة القرآن الكريم في ضوء تعمقه لتلك اللغات، وعلى دراسته للشعر العربي القديم، وعنايته باللغة والنحو العربيين، مع التزامه بمنهج صارم، طغى على تعامله مع الحقائق".¹⁶ إن جهود الاستشراق عموما تضاءلت أمام بلاغة القرآن، فقد أضع المستشرقون المفاتيح البيانية للدخول إلى رحاب القرآن يوم قالوا ببشريته؛ مما أنساهم قداسة الوحي وربانيته، فراحوا يبحثون في سيرة الرسول الكريم لعلمهم يعثرون عن مصدر للقرآن الكريم.¹⁷ ومع مطلع القرن العشرين، ألف المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير (Rigis Blacher) الذي ولد سنة (1900م) كتابين: (القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره) وكتاب آخر: (المدخل إلى القرآن)^{18,19}. إن المطلع على كتابات (بلاشير)، يسجل ملاحظة مهمة مفادها، أن الرجل ظل وفيما لما كتبه شيخ المستشرقين الألمان (تيودور نولدكه)، فقد نقل عنه كثيرا ووافقه في أغلب تحليلاته ومناقشاته.

كما كان المستشرق الأمريكي (آرثر جيفري) بصمة واضحة في تطور الدراسات القرآنية، يتجلى ذلك من خلال تحقيقه مخطوطة (المصاحف) لابن أبي داوود السجستاني. ولا تخفى أهمية هذا الكتاب، فهو أول كتاب متخصص في رسم المصحف وصلنا كاملا، وفيه وصف لنسخ جامعي القرآن الكريم. كما حقق مخطوطتين مهمتين ونشرهما تحت عنوان: (مقدمتان في علوم القرآن)²⁰. وفي هذا السياق العام رأى النور المستشرق الفرنسي المعاصر جاك بيرك (Jacques Berque)، بمدينة فرنده بالجزائر الشقيقة سنة (1910م)، حيث نشأ وتعلم في جامعة الجزائر، وفي جامعة السوربون بفرنسا، فناقش أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه سنة

(1956م) بعنوان: (البنيات الاجتماعية للأطلس الكبير)، وكان جاك بيرك قد استوطن المغرب وتقلد فيه عدة مناصب، منها: مراقبا مدنيا في الإدارة الاستعمارية بالمغرب في الثلاثينيات من القرن الماضي، كما عمل خبيرا دوليا بمصر، ولقي ترحيبا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فنال عضوية المختبر. ثم عمل مدرسا بباريس. كما أشرف على مركز لتعليم اللغة العربية بلبنان. له عدة مؤلفات توفي سنة (1995م).

هو مستشرق تنعته الدراسات المهمة بفكره، بأخ العرب، فهل عكس كتابه (relire le Coran) مبادئ الأخوة العربية أم لا؟ وما هي المنطلقات والأسس المنهجية والمعرفية التي صدر عنها في ترجمته لكتاب الله عز وجل؟ وما رأيه في القضايا العلمية الواردة في كتابه؟ تحاول هاته المداخلة تسليط الضوء على هاته الإشكالات العلمية. ونظرا لضيق الوقت، اقتضى النظر المنهجي التركيز على الإشارة دون التعمق في الأسس والضوابط المنهجية، بخلاف القضايا العلمية، فقد خصصت لها دراسة وصفية تحليلية نقدية، حاولت من خلالها أن أعرض رأي جاك بيرك في المسألة، وأن أناقشه مناقشة علمية موضوعية.

● دراسة تحليلية نقدية في كتاب: (إعادة قراءة القرآن) ل [جاك بيرك (Jacques Berque)]، إن كتاب إعادة قراءة القرآن (Relire le Coran) لمؤلفه المستشرق الفرنسي المعاصر [Jacques Berque] (1910-1995م). كتاب قيم جدير بالدراسة والبحث، نشرته دار النشر Albin Michel لأول مرة بنسخته الفرنسية سنة (1993م)، ثم نشر مترجما إلى اللغة العربية سنة (1995م) بترجمة الدكتور منذر عياشي، تحت وصاية مركز الإنماء الحضاري بحلب سوريا. ثم أعاد نشره المركز نفسه سنة (2005م). وهو كتاب متوسط الحجم، يقع في حوالي 140 صفحة، وتنتظم مباحث الكتاب على الجملة في أربعة مباحث كبرى، إضافة إلى تقديم لمحمد بنونة.

المبحث الأول: مقاربات من البنية،

المبحث الثاني: الزمن في القرآن،

المبحث الثالث: المعيار في القرآن،

المبحث الرابع: القرآن واللغة العربية،

إن هم هاته المداخلة كما سبق؛ الكشف عن آليات القراءة عند جاك بيرك، أو ما أسميه بالأسس المنهجية والعلمية التي استحضرها الرجل ووظفها في كتابه (إعادة قراءة

القرآن) وأهم هاته الأسس: (الالتزام بالموضوعية النقدية، والنزوع نحو كثرة المسألة والاستفهام، وطرح الإشكالات، ونقد المنهج التاريخي والمعطيات التقليدية، واقتراح مناهج جديدة...)، وكذلك النزوع نحو مساءلته في أهم القضايا المعرفية الكبرى الواردة في الكتاب نحو: (نظم القرآن، وجمع القرآن، ونسخ القرآن، وإعجاز القرآن، وأسلوب القرآن...الخ) إضافة إلى تفسير وبيان دوافع الإقراء والنقد غير الموضوعيين للنص القرآني، وذلك في محورين اثنين:

المحور الأول الأسس العلمية في كتاب (إعادة قراءة القرآن) لجاك بيرك: لقد اختار المؤلف عدة ضوابط وأسس منهجية للتعامل مع ترجمة النص القرآني وأول هاته الأسس:
1/ الالتزام بالموضوعية النقدية:

جعل جاك بيرك هاته المسألة أساسية في إعادته قراءة النص القرآني، حيث انطلق من مقارنة صادقة ملتزمة. يقول في هذا الباب: " لن أقاربه من موقف الإيمان، ولكن من موقف البحث والموضوعية النقدية "²¹. إضافة إلى أنه يحب الإطراء على نفسه، فيعترف بأنه الرائي الذي ينظر من بعيد [غير المسلم]، فهو يرى بشكل أفضل من ذلك الذي ينظر وهو قريب [المسلم]²².

وقد سجلنا على الرجل من خلال اعتماده هذا الضابط المنهجي ملاحظة علمية؛ مفادها أن الباحث الأكاديمي الجاد عليه أن يتصف بالتقاليد العلمية في الدراسة والبحث، وأن يحترم شروط البحث العلمي، نحو: حسن النية، والموضوعية، والالتزام بالصدق...الخ. وهاته قضية كبرى، أجمع العلماء و الدارسون عليها. لهذا سجلت على جاك بيرك إخلاله بهذا المنهج، فقد كان موضوعيا انتقائيا بشكل غريب، فحين يريد الوضوح يوضح، وحين لا يريد الوضوح يراوغ بمهارات عالية جدا. أو يلجأ إلى السطحيات والعموميات في [الدفاع] عن توجهه الخاص [الضيق]. كقوله قال ذلك المفسر...²³، وغير ذلك من التصرفات التي تنافي الموضوعية والإنصاف العلميين.

2/ اقتراح مناهج جديدة:

يرى جاك بيرك بأنه لا يمكن التقدم في فك رموز التركيب القرآني؛ إلا بإخضاع هذا الكتاب مسبقا إلى دراسة منطقية، وسميائية، وصوتية في وقت واحد. يقول: " ولكي يتقدم المرء مع ذرة من الأمان في مثل هاته المادة، يجب أن يخضع القرآن مسبقا إلى دراسة منطقية، وسميائية، وصوتية (phonologique) في وقت واحد"²⁴. كما يرى أيضا أن العلوم اللسانية بفروعها المختلفة، يمكن أن تحقق تقدما في هذا المجال. يقول جاك بيرك: " و إننا نعتقد أن التقدم الحالي والذي سيأتي في العلوم اللسانية للبلاغة، وللشعرية، وللسيميولوجيا، يسمح باستشفاف بعض الإمكانيات في التحليل، تكون قادرة على كشف خواص النص القرآني"²⁵.

أما فيما يخص الدراسة الصوتية التي تعنى بدراسة خصائص الأصوات اللغوية، ومخارجها، وصفاتها، والتي هي فرع من فروع العلوم اللسانية. فلا فائدة لها في إعادة قراءة القرآن الكريم، وفهمه، وتفسيره. بل لها فائدة كبيرة في علم التجويد وعلم القراءات القرآنية. وكذلك السيميائيات وغيرها من العلوم التي تفيد في تخصصها.

في ضوء ما سبق يمكن القول، إن هذه الأسس، أو الأدوات المنهجية التي يقترحها جاك بيرك في تناول النص القرآني في نظري، لم تثبت ملاءمتها لهذا الكتاب، بل يبدو عدم جدواها أصلا؛ ذلك أنها إما لا تعين على الفهم والتفسير، وإما تعطي القارئ حرية التصرف في النص بالهدم والبناء، وتحول الكلام إلى مادة هلامية تقول ما يريد القارئ. ومما يؤكد هذا اعتراف جاك بيرك نفسه بأنه لا يملك الأدوات المنهجية التي يقترحها، والتي تساعد على اكتشاف خصائص النص القرآني حسب زعمه قائلا: " وما دمنا لا نملك ما هو أفضل، فلنتابع الوصف"²⁶.

إن هذا الأمر لم يرق مترجم الكتاب الدكتور منذر عياشي، فقد علق عليه قائلا: " لقد شهدت العلوم الإنسانية والسيميولوجية، منذ بداية هذا القرن تطورا عظيما، بدءا من دي سوسيور، وبرس، وانتهاء بتشومسكي، وإيكو وغيرهما. وإني لأعتقد أن المجالات التي جاء بيرك بذكرها قد أصبحت ناضجة بما فيه الكفاية، بحيث كان يمكن لباحث مثله أن يستعين بها. ولكن قد يشفع له بأنه ليس من أهل الاختصاص. وهنا نتساءل لماذا غامر جاك بيرك ب (إعادة

قراءة القرآن)، ولماذا دخل من مداخل علوم اللغة؟... وإنما لنرى هاته الملاحظة لوجهاتها تقلل من قيمة الكتاب العلمية، ولكنها مع ذلك لا تلغي قيمة بعض الآراء الهامة المثارة فيه... الخ²⁷.

3/ نقد المنهج التاريخي:

لقد أساء رواد المنهج التاريخي للنص القرآني إساءة كبيرة جدا، حينما حرصوا على قراءة القرآن الكريم قراءة تاريخية تراعي ظروفه التاريخية، والاجتماعية، والثقافية التي نزل فيها، مهملات المستويات الدلالية الأخرى التي تكتشف من داخل النص. وهو منهج نقدي تسليح به كبار المستشرقين في دراساتهم للنص القرآني كنيودور نولدكه وغيره. حيث وجدوا فيه بغيتهم للإساءة إلى كتاب الله تعالى ونفي ألوهيته. كما لجأوا إلى جمع الروايات الواهية المكذوبة المرتبطة بالقرآن الكريم في دراساتهم النقدية له. وقد دفعهم البحث إلى الحديث عن أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم عن عاصره من الأخبار والرهبان، وتأثر القرآن بالشعر الجاهلي، والشعر العربي المعاصر له. وزيادات وقعت فيه أثناء جمعه.

لهذا اطلع جاك بيرك على أساسيات هذا المنهج و منطلقاته لقراءة القرآن الكريم. حيث اقتنع بأنه لا يصلح لدراسة النص القرآني. الشيء الذي دفعه إلى انتقاد هذا المنهج انتقادا لاذعا، إذ رأى عدم ملاءمته لقراءة النص القرآني. يقول جاك بيرك: " إن الاستشراق إذا درس النص القرآني، مسلحا بعاداته في المنهج التاريخي، فقد أسس نفسه على التسلسل التاريخي للتزول. وكان هذا منه إفراطا إلى حد ما من وجهة نظري. وربما كان قد فعل هذا لكي يظهر تطورا لمتصور الله يقوم في التأكيدات المتتالية للنص... ولكني لست مقتنعا بقناعة كاملة بأنه يلائم هذه الرسالة"²⁸.

4/ نزوعه المسألة والاستفهام والاستشكال:

ومن الأدوات المنهجية التي سلكها جاك بيرك، في قراءته للقرآن الكريم طرحه أسئلة واستفسارات واستشكال إشكالات. يقول: " يجب على قراءة القرآن أن تكون مسألة ومستفهمة، وإشكالية"²⁹. وهي دعوة نوافقه عليها، ونشاطه فيها الرأي. لأن القرآن الكريم ما نزل إلا ليقرأ ويتدبر ويفهم معانيه. وهو كتاب لا تنقضي عجائبه، يجب أن يستنطق ويستفهم،

حتى يسائر الحياة ويحل المشاكل المستجدة. ولكن القراءة الاستشكالية يجب أن تكون مبنية على ضوابط علمية واضحة، فلا نستفهم القرآن الكريم لكي نجيب مكانه، فهذا تصرف لا يصدر عن عاقل، بل هو اتباع للأهواء والرغبات. ولغاية منهجية نكتفي بهاته الأسس العلمية التي سطرها جاك بيرك في كتابه، وقد حاولت دراستها والتعليق عليها سالكا منهج التلخيص والاختصار. لأنتقل إلى مساءلته في القضايا العلمية الواردة في ثنايا الكتاب بغية معرفة ملامح منهجه ونظريته إليها.

المحور الثاني: القضايا العلمية الواردة في كتاب: (إعادة قراءة القرآن) لجاك بيرك:

1/ نظم القرآن:

إن القرآن الكريم قد انفرد بنظم بديع لا يدانيه نظم؛ ذلك أنه كلام الله سبحانه وتعالى، فمعناه ولفظه كلاهما من الله. فكمثل بذلك لكمال مصدره. وفي هذا السياق تداول علماء البلاغة والنقد والإعجاز، قضية النظم³⁰. حتى أصبحت نظرية قائمة بذاتها في حدود القرن الخامس الهجري مع عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الذي قدم لها تعريفا دقيقا جدا. يقول: "وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حساب ترتيب المعاني في النفس. فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه إلى بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق، وكذلك كان عندهم نظيرا للنسخ والتأليف، والصياغة والبناء، والوشى والتحير، وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى تكون لوضع كل حيث وضع على تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح له"³¹. هنا يفرق الجرجاني بين نظم الحروف ونظم الكلم، فنظم الكلم ليس هو توالي الألفاظ في النطق، كما هو الشأن في نظم الحروف، بل هو أن تتناسق دلالاتها وتتلاقى معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل. كما تقوم هذه النظرية على اللفظ والمعنى والالتحام الموجود بينهما، وذلك لأن الكلام بوجه عام يقوم على أشياء ثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم³².

إن المتتبع لعيون التراث العربي، ككتب الجاحظ (255هـ)، وابن قتيبة (276هـ) والرماني (384هـ)، والخطابي (388هـ)، والباقلاني (402هـ)، والجرجاني (415هـ)؛ يجد أن النظم كان حاضرا، لكن بمفهومه ومعناه، لا باصطلاحه ولفظه... أي أنهم تحدثوا عن النظم بمسميات أخرى غير هذا المصطلح (النظم). ومن هذه المسميات: النسج، والتأليف، والصياغة، والبناء، والوشي، والتحبير، كما تقدم ذلك عند الجرجاني الذي استوت معه نظرية النظم على سوقها وتوفيت بوفاته. رغم جهود علماء التفسير اللاحقة في القرن السادس، إلا أن ذلك لم يسهم في تطور النظرية كثيرا، فسارت تعرف في العصر الحديث بالسياق، والنسق، والوحدة البنائية، وغير ذلك من المسميات. كما حاول إحياء هاته النظرية الإمام عبد الحميد الفراهي (1349هـ) في مشروعه الضخم في خدمة كتاب الله عز وجل. وتبعه تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي (1418هـ) رحمهم الله جميعا. إن أهمية النظم تعظم بعظم وظيبتها في حل مجموعة من الإشكالات التي أثرت حول القرآن الكريم، نحو التكرار والزيادة، والاشتراك اللفظي، والترادف، والنسخ... وغيرها من الإشكالات التي اقتنصها المستشرقون للطعن في كتاب الله فحاولوا تشويهه وإزالة القدسية عنه. وهي إشكالات أيضا حالت دون الفهم السليم لكلام الله عز وجل، بل أدت إلى تعطيل فاعليته في الواقع.

من هذا المدخل يرى جاك بيرك أن القرآن الكريم منتظم، وأن كثرة الأساليب البلاغية، والوجوه البيانية، وتنوع القضايا والمواضيع داخل السور القرآنية، لا تتنافى مع انتظامه، لهذا خالف إخوانه المستشرقين الذين تناولوا النص القرآني من غير استعداد ولهم انطباعات سطحية عن القرآن الكريم. ذلك أن ما يظهر من تعارض عن النص القرآني فهو تعارض ظاهري وليس حقيقي. لهذا انتظم كلام جاك بيرك في هذا الباب عن النظام التركيبي للقرآن الكريم انطلاقا من ترتيب السور، وأسلوب الالتفات في القرآن الكريم، وتنوع الأسلوب بين السور المكية والسور المدنية. يقول جاك بيرك في هذا الباب: "إن التبعض المفترض في معالجة المواضيع، إنما هو ملازم لوحدة المجموع. وأن كل هذا النثر من الكلمات، والصور، والوقائع، ليقودكم إلى خطوط هي نفسها متحدة الاتجاه، ألا فلنغامر بصورة يفهما الآخر، فهما أفضل، وإن كان الثمن هو استعارة تتناقض قليلا مع الجملة السابقة، فالقرآن يجعلنا نفكر بجرم صلب متعدد الصفحات، إنه موحد إذا نظرنا إليه في مجموعه، وهو أيضا متعدد الوجوه"³³.

وقد أشاد بهذا النص أحد الدارسين لفكر المستشرق المعاصر جاك بيرك ألا وهو شيخنا أحمد بوسوا فقال: " إن رأي جاك بيرك في مسألة نظم القرآن، لا يخالف رأي علماء الإسلام، فالقرآن عندهم منتظم في مسائله، رغم كثرة الوجوه البيانية، وتنوع الأساليب البلاغية، ووفرة القضايا والمواضيع المعالجة في سورة واحدة"³⁴.

هذا رأي شيخنا أحمد بوسوا، ولنا رأي مخالف في الموضوع مفاده أن الخلاف بينهما قائم بين علماء لإسلام، وذاك بيرك وهو خلاف مبني على اختلاف الخلفيات المرجعية التي يصدر عنها كل واحد منهما. لاشك أن علماء الإسلام ينطلقون في دراستهم لمسألة النظم من تراث من تقدمهم من المفسرين، بخلاف جاك بيرك رغم أنه صرح في أكثر من مناسبة على مرجعيته، إلا أن المرء مجبول على الفطرة. فمن الصعب التخلص من الذاتية. سيما أن النظم بمفهومه ومعناه وجد في العهد النبوي، وبعده عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم... لكنه لم يكن معروفاً باصطلاح خاص إلا في وقت متأخر جداً مع الجاحظ تقريباً. قلت: لما ناقش جاك بيرك عدم الاطراد في القرآن الكريم، تحدث عن (ترتيب السور، وعن ترتيب نزول القرآن). استحضر وهو لا يبدي عيباً في ترتيب سور القرآن، وهذا ما يفسر اعترافه بأن ترتيب سور القرآن لم يكن من باب الصدفة. يقول جاك بيرك: " وها هو أمر آخر لا يمكن للمرء أن يعزوه إلى المصادفة أيضاً، وإنني لا أعتقد أننا بهذا قد بدأنا نلازم عن قرب كاف التوزيع القائم في النظام الرباني"³⁵.

إن القارئ لفكر جاك بيرك يستشعر نوعاً من المعاناة، وهو يتعقب قراءته، نتيجة التعطيم الذي ينال مقارنته لترجمة النص القرآني، خشية المأخذ الصريحة عليه. لهذا وجدته يتلاعب باللغة، وينتقي عبارات ذكية جداً يحسن المراوغة فيها. مما ينبئ عن عمق منهجي مقصود في الدراسة. إن حديثه عن عدم اطراد القرآن الكريم منحصر في مسألتين كما سبق. مما يعني أن المؤلف لا ينجح منهجاً واضحاً في اعترافه بروعة التركيب القرآني. بل كثيراً ما يميل إلى العبارات التي لا تثبت ولا تنفي نحو قوله: " فهل يدين مثل هذا التناظر إلى المصادفة؟ من الصعب على المرء أن يظن ذلك..."³⁶. هذه بعض تجليات ومظاهر جهود جاك بيرك في الحديث عن نظم القرآن وأسرار تركيبه. فماذا عن القضية الثانية التي تتعلق بجمع القرآن الكريم؟.

2/ جمع القرآن:

هذا مبحث كبير جدا في مصنفات (علوم القرآن)، كالبرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي (794هـ)، و(الإتقان في علوم القرآن) لجلال الدين السيوطي (ت911هـ)، و(مناهل العرفان) لعبد العظيم الزرقاني (ت1367هـ)، و(مباحث في علوم القرآن) لخليل مناع القطان (1420هـ)، وصبيحي الصالح (1407هـ)... الخ. فكل واحد تناوله بمنهج خاص يختلف عن منهج الآخر. وإن كانت أغلب هاته المصادر تهمل من (برهان) الزركشي مع تقديم وتأخير، وتهذيب وتشذيب.

وكما تناول علماء الإسلام قضية جمع القرآن، فقد تناوله أيضا الدارسون الغربيون. ومن هؤلاء المستشرق جاك بيرك الذي استدعى مسألة (جمع القرآن) في سياق حديثه عن بنية القرآن، حيث حصر كلامه في الجمع الأخير الذي تم في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه. وقفز-ولا ندري أسباب ذلك- عن الجمع الذي وقع في عهد أبي بكر الصديق الخليفة الأول رضي الله عنه. هذا و يبدو للدارسين بأن الأمر عاد جدا، وأن الجمع الثاني؛ أي جمع عثمان يشبه الجمع الأول. وهذا أمر غير صحيح البتة؛ بل هما يختلفان من حيث الباعث والكيفية. إن الباعث والدافع الأساس لجمع أبي بكر رضي الله عنه؛ هو الخوف من أن يضيع شيء من القرآن بعد وقعة اليمامة التي اشتد فيها الحرق و قتل كثير من الصحابة الحفظة. فمخافة ضياع القرآن الكريم، حينما كلف أبو بكر رضي الله عنه زيد بن ثابت بجمع القرآن. والقصة معروفة مشهورة عند الدارسين³⁷. وأما الباعث لجمع عثمان رضي الله عنه القرآن الكريم، وهو ما سعي بالجمع الثاني، فمخافة اختلاف القراء، لهذا كان الجمع في مصحف واحد؛ إنه مصحف عثمان.

إن التأمل في هاته القضية يفيد في تسجيل ملاحظات مهمة مفادها:

1/ أن جاك بيرك أغفل الجمع الأول وهذا في نظري خطير جدا، ذلك أنه مدخل قوي من مداخل الطعن في سلامة النص القرآني، وأنه قد يطاله الزيادة أو النقصان لطول المدة التي نزل فيها على النبي صلى الله عليه وسلم وجمع عثمان. وبالتالي سوف نقصي مرحلة مهمة من مراحل تواتر القرآن الكريم.

2/ تؤكد هاته الملاحظة سابقتها، ذلك أن موقف جاك بيرك من سلامة نقل القرآن الكريم، لم يكن موقفا صريحا وواضحا بينا، فما يفهم من كلامه أن نقل القرآن الكريم بعد

جمع عثمان إلى اليوم؛ إنما هو نقل سليم، أجمع عليه المسلمون جميعا ولم يفصح عن موقفه عن حالة هذا الجمع قبل ذلك.

نعود لتعميق النظر في دعوى جاك بيرك يقول: " وهو نص لم يعترض عليه لا في مجموعته ولا في تفاصيله أحد من الفرق العديدة التي فقت الإسلام. فلقد وصلنا إذن وضامنه رواية متتابعة ومجمع عليها".³⁵ إن مضمون كلامه، أنه لا ينهج المنهج العلمي السليم؛ بل قصده الطعن في القرآن الكريم من خلال بعض الزوايا الضيقة التي يصعب الدخول منها؛ ألا وهي جمع القرآن الكريم. لكن من كان منهجه غير علمي فكيف يستطيع أن يتصور أن أخطر قضية في علوم القرآن الكريم. هذا من جهة فيما يتعلق بالقضية الثانية، التي محورها جمع القرآن. فماذا عن قضية النسخ؟ وهي قضية أخطر من سابقتها؟

3/ نسخ القرآن:

تعد قضية النسخ من القضايا الحارقة في تراثنا الإسلامي، لقد ألفت فيها مؤلفات، وصنفت فيها مصنفات منذ القرون الأولى، وما زالت الدراسات تهتم بها إلى الآن. كما شكلت حضورا بارزا في أمهات أصول الفقه، وأمهات علوم القرآن³⁸. لغاية منهجية نكتفي بالإحالة إلى بعض الدراسات، وإلا فلا تتسع هاته الصفحات المعدودات لسرد كل ما أنجر. إن استحضار جاك بيرك لمسألة النسخ دليل قوي على أن الرجل خبير بالتراث الإسلامي، وبالنص القرآني وعلوم القرآن. يستحضر أهم قضاياها ومسائله. غير أنه تناول النسخ تناولا محتشما جدا. حيث تحدث عن الزمن في القرآن، ونبه على أن النسخ أمر "يدهش القارئ الغربي"³⁹. ولم يفصح عن موقفه في هاته القضية، بل حكى الخلاف القائم عند علماء الإسلام في قضية النسخ، وعدد الآيات المنسوخة، والسور التي وقع فيها النسخ،... ناقلا ذلك عن أبي حامد الغزالي (ت505هـ)⁴⁰.

4/ لغة القرآن: إن المرجع الأساس في فهم القرآن الكريم، والوصول إلى إدراك مراد الله تعالى من آيه، هو المتعارف عليه من فهم أهل اللغة؛ لأنه نزل بلسان عربي مبين.

يقول الله تعالى: ﴿ قرأنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون ﴾ [الزمر: 28]. وقد عد ابن عباس رحمه الله تعالى هذا الكلام، قسما من أقسام التفسير، إذ قسمه إلى أربعة أقسام. يقول بدر الدين الزركشي في بيانها: "قسم تعرفه العرب في كلامها، وقسم لا يعذر أحد بجهالته- من الحلال والحرام-، وقسم يعلمه العلماء خاصة، وقسم لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه فهو كاذب، فأما الذي تعرفه العرب، فهو الذي يرجع فيه إلى لسانهم، وذلك شأن اللغة والإعراب... فما كان من التفسير راجعا إلى هذا القسم، فسبيل المفسر التوقف فيه على ما ورد في لسان العرب، وليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز، ولا يكفي حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركا، وهو يعلم أحد المعنيين"⁴¹. وفي قوله تعالى: ﴿ إنه ظن أن لن يحور بلى ﴾ [الانشقاق: 14]، يحكي الزركشي: "أن ابن عباس كان لا يدرى (يحور) حتى سمع أعرابية تدعو بنية لها: حوري، أي: أرجعي؛ فالحور في كلام العرب: الرجوع"⁴².

فلا بد إذن من العودة إلى التفسير اللغوي للآيات كخطوة أولى لفهمها، وأما كيفية حصول هذا الفهم، فيدل على ذلك ما يلي. يقول السيوطي: "قال فخر الدين الرازي في (المحصول في علم الأصول): الطريق إلى معرفة اللغة، إما النقل المحض كأكثر اللغة، أو استنباط العقل من النقل، كما إذا نقل إلينا أن الجمع المعرف يدخله الاستثناء إخراج ما يتناول اللفظ، فحينئذ يستدل بهذين النقلين على أن صيغ الجمع للعموم. وأما العقل الصرف فلا بد له في ذلك، وقال: والنقل المحض: إما تواتر، وإما آحاد... قال الرازي والآمدي: وأكثر ألفاظ القرآن من الأول، أي المتواتر. واشترط الزركشي في البحر المحيط، أن يكون النقل عمن قوله حجة في أصل اللغة كالعرب العاربة مثل قحطان، ومعد، وعدنان، فأما إذا نقلوا عمن بعدهم بعد فساد لسانهم واختلاف المولدين فلا"⁴³.

ويقول أبو إسحاق الشاطبي (ت790هـ): "من أراد تفهم القرآن، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة... إن القرآن نزل بلسان العرب، وإنه عربي،

وإنه لاهمة فيه، فبمعنى أنه أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها، وأنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام، يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه، والخاص في وجه... وكل ذلك يعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره" ⁴⁴. وبالتالي فتعلم العربية، والتبحر في علومها من أصول التفسير. وقد أحصى العلماء العلوم التي يحتاج إليها المفسر، وهي خمسة عشر علما، منها ثمانية من علوم العربية، وهي: " اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، والمعاني، والبيان، والبديع، والقراءات" ⁴⁵.

إن التمكن من علوم العربية كفيل بتحقيق غايات سامية، أهمها القراءة الصحيحة لكتاب الله عز وجل، ثم التدرج في فهم معانيه. وفي هذا السياق حاول بعض المستشرقين إتقان العربية، فتمكنوا منها إلى حد كبير نذكر منهم آرثر جيفري، وبلاشير، ونولدكه، و جاك بيرك وغيرهم... وهم متفاوتون بشكل كبير في إتقان اللغة العربية؛ أفضلهم الذين استوطنوا البلدان العربية. فقد تمكنوا منها بشكل غريب جدا. وقد كان هذا ديدن المستشرق الفرنسي جاك بيرك حيث استقر بالمغرب، ومصر، ولبنان وغيرها، ناهيك عن الجزائر فقد ولد ونشأ بها. أكثر من ذلك؛ لقد تمكن من علوم العربية مما جعله مصدر ثقة للحصول على عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة، اعتبارا لما لمسوا فيه الأعضاء من قدرة على مناقشة القضايا اللغوية بمختلف تشعباتها. هذا وقد تحدث جاك بيرك عن خاصية اللغة العربية بالنسبة للقرآن الكريم، فقام بمقارنات بين القرآن والشعر الجاهلي من حيث الأسلوب، وتحدث أيضا باختصار عن فكرة الإعجاز. وانتظم الكلام في هذا الأساس المنهجي في نقطتين مهمتين:

1/ خاصية اللغة العربية:

إن طبيعة اللغة العربية التي نزل بها القرآن تجعل الرابط بينها وبين القرآن الكريم رابطا عضويا، بحيث تصبح جزءا لا يتجزأ من عملية قراءة هذا الكتاب وفهمه وتفسيره. وهي خاصية لا توجد في الكتب السماوية السابقة كال�وراة والانجيل. فإن دور اللغة فيها من الناحية العملية دور مفقود. وقد انتخبت نماذج من كتاب المؤلف يقول جاك بيرك: " إن مسألة اللغة

لا تضطلع عمليا بأي دور فيما يتعلق بالأناجيل؛ فاللهجة التي كان فيها عيسى يدعو بها لا تستدعي اهتمام المفسر⁴⁶.

ولم يخف جاك بيرك رأيه في اللغة، وسبب اختيار اللغة العربية لتكون لغة القرآن، فقد أرجع جاك بيرك ذلك إلى أسباب أهمها تقدم هذه اللغة، وجودتها الفائقة. يقول: "لقد تم اختيار العربية تحديدا لأنها لغة تقدم وجودة فائقة"⁴⁷. نعم لغة التقدم، والجودة الفائقة، نستشكل هنا المسألة، حسب رأي جاك بيرك، أين تكمن مظاهر التقدم والجودة؟ فهلا حددت لنا بعضا من تجليات الجودة والتقدم في اللغة العربية التي زعمت أنها لغة التقدم والجودة؟ هاته أسئلة مشروعة إلى حد كبير جدا؛ سيما أن بعض الدارسين بالغ في الركوب على هاته المسألة.

قلت، كنت أظنه لن يجيب وأنه يظهر مالا يبطن؛ غير أن تتبع تفاصيل أقواله يفيد في الوقوف على هاته المظاهر التي عبر عنها بالبيان والتفصيل. وفي هذا السياق عقد جاك بيرك مقارنة -هي في نظرنا قاصرة- بين الفلسفة اليونانية القديمة والحكمة الإسلامية، قال: "وإن هذا ليزكرنا بما كان يطليه أرسطو من الخطاب الفلسفي: أن يكون خطابا يتضوع نوره. ويجب على اللغة لكي تكون دالة، أن يتضوع النور الذي تحتويه. ولقد كان هذا الأساس اللساني والمنطقي أيضا لليونان. فلنسجل من غير أن نستخلص أي نتيجة، هذا اللقاء بين الهلينية القديمة والحكمة الإسلامية"⁴⁸.

وهي مقارنة قاصرة لاختلاف المقاصد والغايات، وهو الرأي الذي نتبناه في الموضوع، وقد ساندنا فيه مترجم الكتاب الدكتور منذر عياشي إلى حد كبير. سواء كان اللقاء المقصود بين المصطلح اللغوي اليوناني أو الحضارة اليونانية وبين الحكمة الإسلامية، فإن هذا لا ينفي الاختلاف بينهما على المستويين: مستوى المصطلح وما يقوم خلفه من مفاهيم، والمستوى الحضاري وما يملأ به هذه المفاهيم من معاني. فالحضارة الإسلامية حضارة نص، ولذا فقد كان الدرس اللغوي فيها سابقا على الدرس البلاغي. وأما الحضارة اليونانية ووليدتها الغربية المعاصرة فهي حضارة شخص. ولذا كان الدرس البلاغي سابقا فيها على الدرس اللغوي.

إن الدرس اللغوي وعلومه سار في الحضارة الإسلامية مسارا، يختلف عن مسار الدرس البلاغي في الحضارة اليونانية. فلقد نظر العرب في اللغة ونظامها والنص ونظامه، فارتقوا إلى نظام معرفي أعلى، صار فيه وجود الخلاف ضرورة لغوية. وأما اليونان، فقد نظروا إلى الشخص، ورأوا أن البلاغة هي السبيل الذي يحقق به الشخص القناعة فيما يقول، فظلوا بذلك في دائرة الشخص ولم يجردوا، وظلوا في دائرة المعطى والنتائج ولم يرتقوا إلى فكرة الأنساق والنظم.

2/ المقارنة بين القرآن والشعر:

إن الشعر ديوان العرب، والقرآن الكريم، نزل بلسان عربي مبين؛ فالصلة بين المعنى القرآني والمعنى الشعري صلة حميمة، تنعقد في رحم اللغة العربية المباركة. كما يمثل الشعر العربي الركن الأساس- بعد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف- في معرفة كلام العرب، بل يمثل مظهرا مهما من مظاهر حياتهم، فله منزلة رفيعة في نفوسهم، إذ كانوا يتناشدونه في كل مكان، ويحفظونه ويتداولونه؛ ولذلك بدأ تفسير القرآن أول ما بدأ مقترنا بالاستشهاد بالشعر. " ففي القرآن كلمات غريبة يحتاج المفسر عند بيان معناها إلى الاستشهاد بكلام العرب، ليعلم أن التفسير لم يخرج عن حدود اللسان العربي، فيطمئن إلى صحة التفسير"⁴⁹. فقد ذكر أن ابن عباس: " كان أول من ارتقى المنبر بالبصرة، وأخذ يفسر القرآن، ويستشهد في تفسيره بالشعر"⁵⁰.

هذا وقد حرص اللغويون عموما والنحويون خصوصا على جمع الشعر والاستشهاد به لدعم ما يقولونه، وتأييد ما يقررونه من قواعد، وما يتبنونه من آراء ومذاهب، وقد حددوا له شروطا وضوابط للقبول والاحتجاج. ومن ثم وجب على كل دارس أراد تفسير وبيان معاني كتاب الله عز وجل؛ أن يتقن اللغة العربية شعرا ونثرا، حتى يستطيع الاستشهاد بكلام العرب. نتساءل عن نصيب المستشرقين في هذا الباب، سيما المستشرقون المعاصرون مثل: جاك بيرك؟ يعترف جاك بيرك في مستهل حديثه عن العلاقة القائمة بين القرآن الكريم والشعر العربي، وينتصر لعلو مكانة القرآن الكريم على الشعر العربي فيما يتعلق بالمعاني؛ ذلك أن

الشعر يتحرك -كما قال- في النهاية في إطار الشرود والخيال⁵¹. وقد سجل جاك بيرك تشابها بين القرآن والشعر الجاهلي، مستندا إلى بعض المشاهد الوصفية والوقوف في القرآن. وأحيانا أخرى إلى علاقة النبي صلى الله عليه وسلم بشعراء عصره! إن شدة التشابه بين القرآن والشعر في نظر جاك بيرك؛ هي التي دفعت النبي صلى الله عليه وسلم إلى دفع تهمة الشعر، وتهمة الكهانة، والرد على كفار قريش الذين وصفوه بأوصاف باطلة.

وفي هذا الباب يقول جاك بيرك: " ولكن هذا التناظر كان من القوة إلى درجة أن الرسول صلى الله عليه وسلم، قد رأى أن يدفع عن نفسه تهمة النظم أو تهمة الكهانة⁵². هذا رأي جاك بيرك في علاقة الشعر بالقرآن الكريم. ولنا رأي مخالف في الموضوع، ذلك أن نفي الشعر والكهانة عن النبي الكريم في قوله تعالى: ﴿ إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رءاه بالافق المبين وما هو علي الغيب بظنين، إن هو إلا قول شيطان رجييم فأين تذهبون إن هو إلا ذكر العالمين ﴾ الحاقة: 40-43 إنما كان ردا على التهمة التي وجهها كفار قريش للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر وكاهن، ولا يلزم منه، أن هذا الرد كان لتشابه بين القرآن والشعر، فالقرآن نزل بلغته ومعانيه، فلا علاقة له بالعشر من هاته الزاوية الضيقة.

وللاستدلال عن مسألة المشاهد الوصفية، انتخب جاك بيرك مثلا قرآنيا ليشبهه بمشهد في معلقتي امرئ القيس، والأعشى ميمون. فاختار قوله تعالى: ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم بكم عي فهم لا يرجعون، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة: 17-20] يدعي جاك بيرك أنه وجد نفس المشهد في قول امرئ القيس وفي الأعشى، يقول: " وإننا لنجد المشهد نفسه ثانية في معلقة امرئ القيس، وعند الأعشى ميمون، ولكن لن نجد الاندفاع نفسه ولا الإيجاز نفسه". ولكن الغريب في الأمر هو امتناع جاك بيرك عن إيراد شواهد من الشعر لتحديد وجه الشاهد والاستدلال على دعواه. الشيء الذي يفسر

لنا أنه لم يوفق في طرحه هاته المسألة. نعم استحضرت الآية القرآنية ولم يستطع استدعاء الشاهد الشعري الذي يشبه المثل القرآني، مما يعني أنه خفق في طرحه هاته المسألة. وإلا فكيف نشبه نصا مشاهدا معلوما بنص غائب غير معلوم؟. إلى غير ذلك من المسائل التي هو مطالب بتوضيح مقصوده منها⁵³.

لقد قادت الدراسة التي قمنا بها إلى تسجيل عدة نتائج، نشير إليها كالآتي:

1/ ينبغي ألا ننخدع ببريق المنهج الاستشراقي في دراسة النص القرآني. وبتناسي مقاصده وأغراضه من عنايته بالقرآن الكريم. لأن غاية هؤلاء القوم في نظري هي نفس النص من أساسه، وإشاعة الشك في توثيقه، وبالتالي تشكيك شعوب الأرض - ومن بينهم المسلمون - بحقيقة الوحي. وهي حقيقة تعذر على العالم الغربي أن يُقر بها، فحاول أن ينسف علاقة القرآن بالسماء؛ لأن الفكر الغربي مشدود إلى المادة. وكتاب: "إعادة قراءة القرآن" لمؤلفه جاك بيرك على ما يدعيه له بعضهم من دقة وموضوعية ومنهجية؛ فإنه من تلك الجهود التي طمست حقيقة الوحي في الذهنية الغربية.

2/ إن الدراسة التي قمنا بها مكنتنا من التعرف على جملة من الضوابط المنهجية التي اعتمدها جاك بيرك في ترجمته. كما سجلنا عليه عدة ملاحظات نحو سلوكه العموميات، وانتقاده لمناهج رأها غير صالحة للتعامل مع النص القرآني. كما سجلنا عليه عدة ثغرات تحتاج إلى إدامة النظر وباحث خبير ليكشفها.

3/ يختلف جاك بيرك في قراءته للقرآن الكريم عن كثير من المستشرقين؛ إذ حاول أن يتناول ترجمة القرآن الكريم بشيء من الموضوعية، وبالتزام بعض الضوابط المنهجية، بخلاف مستشرقين آخرين إذ انطلقوا من حقدهم على الإسلام، فتناولوا القرآن بالطعن والقذح، وأوردوا شهادات كثيرة عن القرآن الكريم وعن نبي الإسلام رغم أنه لم يوفي بما سطره في مقدمته.

4/ لقد كانت قراءة جاك بيرك قراءة استكشافية لبعض مباحث (علوم القرآن) ولم يهتم بها كثيرا، كما أغفل عدة مسائل، ولعل ذلك ناتج عن تقيده بتلك المباحث الأربعة التي يتألف منها كتابه. كما ظهر في مقابل ذلك نوع من السطحية في ترجمته، كثيرا ما يلجأ إلى العموميات.

5/ كما قادت دراسة القضايا العلمية الواردة في الكتاب، وهي قضايا تنتظم تحت مسمى (علوم القرآن). لهذا لاحظنا تخطيطه فيها، مما أكد لنا أنه لم يستوعب هاته القضايا جيدا، وأنه غامر حين فكر في ترجمة القرآن الكريم. ولم يشف غليل الدارسين في هاته القضايا، مما جعل التعرف على موقفه فيها أمرا صعبا، كما اقترح مناهج جديدة في التعامل مع النص القرآني، لم تثبت فائدتها في التعامل من النص القرآني، ولم يشرح كيفية تطبيقها؛ ولعل هذا سبب مروره عليها مرور الكرام... ويبقى السؤال قائما فكيف يدعو إذن إلى إعادة قراءة القرآن وفق مناهج لا يتقنها هو؟!

التوصيات:

إن خير ما أختتم به هاته المداخلة، هو دعوة الباحثين والمهتمين بالترجمة وقضاياها؛ سيما ترجمة تراث المستشرقين المعاصرين ودراسة مشاريعهم وأبحاثهم، وهي دعوة سأنقل جزءا منها إلى زملائي الباحثين أعضاء مختبر الترجمة وتكامل المعارف، التابع لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة القاضي عياض بمراكش. من أجل تعميق النظر في النسق المعرفي العام، ومن أجل دراسة وتحليل المعاجم المستعملة في كتابات المستشرقين المعاصرين أمثال جاك بيرك وغيره. لقد نادى الدارسون والمهتمون بالترجمة كثيرا، وخبروا المنجز حق الخبرة. ولم يهتموا بإنجاز دراسة جادة تؤطر كل من أراد ترجمة القرآن الكريم، وتكون مرجعا يعتمد عند الدارسين المسلمين. سيما فيما يتعلق بأصول وضوابط ترجمة النص القرآني.

يكاد يجمع الدارسون على أن ترجمات القرآن الكريم المختلفة – الأجنبية منها خاصة- حتى التي حظيت بالثناء والتقدير، لم تسلم من الخطأ، من هنا في اعتقادي تأتي الحاجة إلى ترجمات أمينة للقرآن الكريم من جهات مختصة ومسؤولة، وفق مجموعة من الشروط اللازمة لنجاح هاته المهمة، التي هي في الواقع ترجمة تفسيرية تحتاج إلى عدة وسائل وأدوات، أهمها:

- التمكن من علوم القرآن (كنزول القرآن، والناسخ والمنسوخ، وجمع القرآن...)
- التمكن من علوم اللغة العربية (معجما، وصوتا، ونحوا، وصرفا، ودلالة...)
- التمكن من علوم الشريعة (كالحديث النبوي الشريف، والفقه وأصوله، والعقيدة

(...)

الهوامش:

- ¹ - اختلفت عبارات الدارسين والمهتمين في حقيقة هاته القراءة الجديدة للنص القرآني، فمنهم من سماها: القراءات المعاصرة، أو القراءات الجديدة، أو الحديثة، ومنهم من سماها بالحدائثة، أو العصرية... وهكذا. ولا أرى مانعا في الجمع بين كل هاته المصطلحات.
- ² - محمد عبده (1266هـ - 1323هـ) (1849م - 1905م) عالم دين وفقه ومجدد إسلامي مصري، يعد أحد رموز التجديد في الفقه الإسلامي ومن دعاة النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي، ساهم بعد التقائه بأستاذه جمال الدين الأفغاني في إنشاء حركة فكرية تجديدية إسلامية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. تهدف إلى القضاء على الجمود الفكري والحضاري، وإعادة إحياء الأمة الإسلامية لتواكب متطلبات العصر. وعرف برسالته في التوحيد، وتحقيق وشرح (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) للرجاني. كما عرف بتفسيره (المنار) الذي أتمه تلميذه الشيخ رشيد رضا.
- ³ - ولد الشيخ أمين الخولي (1313 هـ / 1 مايو 1895 وتوفي عام: 1385 هـ / 9 مارس 1966) هو أديب مصري من كبار حماة اللغة العربية، زوج الدكتور عائشة بنت الشاطئ رحمها الله، كما أسس جماعة الأمناء، التي من أعضائها شكري عياد، ومحمد أحمد خلف الله. وله العديد من المؤلفات أهمها مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والبيان.
- ⁴ - د/ محمد عابد الجابري، الذي ولد في فكيك بشرق المغرب سنة 1936م، وحصل على دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة في سنة 1976م، ثم على دكتوراه الدولة في الفلسفة عام 1970م من كلية الآداب بالرباط، وعمل أستاذا في نفس الكلية لمادة الفلسفة والفكر الإسلامي، توفي سنة 2010م، وللجابري كتب كثيرة في الفلسفة والفكر الإسلامي، يهمن منها هنا كتابه: "فهم القرآن الكريم" في أجزاء صدرت عن مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت سنة 2008م، وكتابته: "مدخل إلى القرآن الكريم".
- ⁵ - د/ محمد أركون: ولد في مدينة تاوريرت بمنطقة القبائل الأمازيغية بالجزائر سنة 1928م، وأكمل دراسته الثانوية في وهران، ثم ابتدأ دراسته الجامعية بكلية الفلسفة في الجزائر العاصمة، لبيتها في السوربون في باريس، وهناك حصل على الدكتوراه في الفلسفة سنة 1968م، وعمل أستاذا في السوربون لمدة طويلة، وتوفي سنة 2010م، ومحمد أركون كتب كثيرة في الفلسفة والفكر الإسلامي بالفرنسية تُرجم كثير منها إلى العربية، يعنينا منها ههنا، كتابه عن: "القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني"، وكتابته: "الفكر الإسلامي نقد واجتهاد" ففيه فصول خاصة بتفسير القرآن الكريم وتدوينه وجمعه، وكتابته عن: "الفكر الإسلامي قراءة علمية" ففيه مباحث خاصة بالقرآن الكريم.
- ⁶ - ولد نصر حامد أبوزيد في إحدى قرى طنطا في 10 يوليو 1943م، ونشأ في أسرة ريفية بسيطة، له العديد من المؤلفات أهمها: الاتجاه العقلي في التفسير (دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة) وكانت رسالته للماجستير، وفلسفة التأويل (دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي) وكانت رسالته للدكتوراه، في كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة العربية. و(مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن)، وإشكاليات القراءة وآليات التأويل) ونقد الخطاب الديني... الخ.

⁷ - د/ الصادق النهوم: ولد سنة 1937م في بنغازي بليبيا ودرّس بالجامعة الليبية بكلية الآداب والتربية في قسم اللغة العربية، وتخرّج منها، ونال الدكتوراه من جامعة ميونخ ، ودرّس مادة مقارنة الأديان بجامعة فنلندا، وتوفي سنة 1994م في جنيف، له مؤلفات كثيرة. لكن أراؤه لم تدرس.

⁸ - د/ عبد المجيد الشرفي: أستاذ الحضارة العربية الإسلامية في كلية الآداب جامعة تونس، متخصص في الدراسات الإسلامية، له كتب سترد الإحالة إليها، اشتملت على محاولات جديدة في قراءة القرآن الكريم قراءة حديثة.

⁹ - ومن هاته المناهج (البنيوية، واللسانية، والسيمايانية، وعلم الأناسة والأنثروبولوجيا...)، وأحيانا الخلط بين هاته المناهج كلها في دراسة النص القرآني.

¹⁰ - على اعتبار أن فعل الترجمة،-حسب نظرية التلقي الحديثة- قراءة. لهذا يتسع مفهوم القراءة ليشمل كل الأشكال القرائية الموازية والمتفاعلة مع النص الأصل. وحق القراءة ممتد في الزمان والمكان؛ لأن معنى النص لا يمكن الإمساك به بشكل نهائي. ثم إن أي نص لا يقبع أسير مادته وإنما يعرف تجددا وحيوية عبر تعدد متلقيه واختلاف مشاربهم الفكرية والثقافية. فالترجمة قراءة بما تحمله من أسئلة وهموم. وهي استحضار لمقاصد المترجم، وأسئلته الذاتية والموضوعية، وهو في نهاية المطاف قارئ مترجم مأول.

¹¹ - لعل أهم سبب هو منع عموم المسيحيين بالاطلاع عليها، خوفا من أن يسبب ذلك عاملا من شأنه أن يسهل معرفة مبادئ الإسلام من خلال دستوره كتاب الله عز وجل. ومن ثم ينتشر الدين الإسلامي، بدلا من أن تخدم هذه الترجمة الهدف الرئيس الذي سعت الكنيسة لأجله أصلا ألا وهو محاربة الإسلام وتشويه صورته فكريا. لهذا سمحوا لرجال الكنيسة الكاثوليك فقط بالاطلاع على هاته الترجمة. لمزيد توسع في هذا الباب: انظر: محمد صالح البنداق: المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، (بيروت، 1980م)، ص.95

¹² - نشرت أول مرة بلندن عام (1734م)، ثم توالى الطباعات فوصلت إلى أكثر من ست وعشرين مرة. وشكلت مرجعا رسميا لفترة من الزمن

¹³ - ولد المستشرق الإنجليزي جورج سيل في لندن عام (1697م) وفيها توفي عام (1736م)، تعلّى العربية على أساتذة عرب. انظر: ترجمته مفصلة: نجيب العقيلي: المستشرقون، ط4، (القاهرة- 1946م)، ج2/، ص47؛ عبد الرحمن بدوي المستشرقون، ص 358.

¹⁴ - القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، ص.31

¹⁵ - إن نولدكه هو أحد أقطاب الاستشراق الألماني، وشيخ الألمان بدون منازع، به انتهت الحقبة الزاهية للاستشراق الألماني. وقد جعل مدينة ستراسبورغ في نهاية حياته مركزا للاستشراق الأوروبي. وحصيلة جهوده في مجال دراسة النص القرآني: أصبحت عمدة ومنطلقا للدراسات القرآنية في أوروبا، وأصبحت تبني عليها أخطر النتائج في مجالات الدراسات الإسلامية. فقد كان أكبر متخصص في علوم القرآن في أوروبا كلها. وحصل على الدكتوراه سنة 1856 برسالة له باللاتينية تناول فيها " أصل القرآن وتركيب سورة. انظر: جهود المستشرقين في خدمة الدراسات القرآنية مدرسة تيودور نولدكه(ت:1931م) نموذجا. مقال شاركنا به في ندوة دار الحديث الحسنية بتاريخ، 29/ 01/ 2013م.

- ¹⁶ - القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، دراسة في تاريخ القرآن: نزوله وتدوينه وجمعه. تأليف مشتاق بشير الغزالي، طبعة دار النفائس، ط1 (1429هـ، 2008م). ص.31
- ¹⁷ - القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، ص.31.
- ¹⁸ - Régis, Blacher , Introduction au Coran, (Paris- 1947).
- ¹⁹ - فالأول ترجم إلى اللغة العربية من طرف رضا سعادة، بينما الثاني غير مترجم إلى حدود علمي. وكان موضوع الكتباين البحث في (تأريخ القرآن) كتدوين الآيات، والصور القرآنية خلال العهد النبوي، وتقسيم القرآن أجزاء وسورا، ونقش الروايات الإسلامية المتعلقة بجمع القرآن الكريم.
- ²⁰ - هما مقدمة (المباني في نظم المعاني)، لأبي محمد حامد بن أحمد بن جعفر بن بسطام المتوفى بعد سنة 425هـ . ومقدمة (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لعبد الحق بن عطية الغرناطي الأندلسي (ت 541هـ).
- ²¹ - إعادة قراءة القرآن: ص. 29.
- ²² - نفسه، ص.30.
- ²³ - لمزيد توسع في هذا الباب، يرجى العودة إلى ص 37-38-42-59.
- ²⁴ - إعادة قراءة القرآن، ص. 41.
- ²⁵ - نفسه، ص.120.
- ²⁶ - نفسه.
- ²⁷ - نفسه، هامش الصفحة 120.
- ²⁸ - نفسه، ص.36.
- ²⁹ - ص، 107.
- ³⁰ - النظم لغة هو الجمع، والضم، والاتساق، والنظام، والتأليف. جاء في معاجم اللغة: النظم التأليف نظمه نظما ونظاما ونظمه فانظم وتنظم، ونظمت للؤلؤ أي جمعته في السلك والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر....، وكل شيء قرننه بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض قد نظمته، والانتظام الاتساق.
- ³¹ - انظر: " أثر النظم القرآني في بناء علم المعاني"، مقال للدكتورة نعيمة البداوي ، ضمن مجلة الترتيل، العدد الثاني، شتنبر 2014م من إصدار الرابطة المحمدية للعلماء مركز الدراسات القرآنية. ص 80-81.
- ³² - نفسه.
- ³³ - انظر: إعادة قراءة القرآن، ص.31.
- ³⁴ - انظر: بحث شيخنا أحمد بوسوا. ص.30.
- ³⁵ - إعادة قراءة القرآن، ص. 36.
- ³⁶ - المصدر السابق، ص.37.
- ³⁷ - انظر: مسألة جمع القرآن في مصادر علوم القرآن: (كالبرهان في علوم القرآن) لبدر الدين الزركشي، (والإتقان في علوم القرآن) لجلال الدين السيوطي وغيرهما.

- ³⁸ -ومن القضايا التي مازالت تحتاج إلى دراسات جادة، قضية امتناع نسخ التلاوة، في حدود اطلاعي لم تبحث هاته المسألة كما ينبغي.
- ³⁹ - جاك بيرك، ص.70
- ⁴⁰ - المستقصى من علم الأصول، ج1/ ص86-103
- ⁴¹ - البرهان في علوم القرآن، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، بيروت، دارالمعرفة (1391هـ، 1972م) ج1/، ص.165
- ⁴² - نفسه.
- ⁴³ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، الطبعة الرابعة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (1378هـ، 1958م)، ج1/ص57.
- ⁴⁴ - الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق، محمد عبد الله دراز، طبعة دار الحديث، القاهرة (1427هـ، 2006م)، ج2/ص 64 -66.
- ⁴⁵ -الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة، دار ابن كثير، دمشق (1416هـ، 1996م)، ج2/ ص9 وما بعدها بتصرف يسير.
- ⁴⁶ - إعادة قراءة القرآن، ص. 102.
- ⁴⁷ - إعادة قراءة القرآن، ص.105.
- ⁴⁸ - نفسه، ص 105-106.
- ⁴⁹ - الشاهد الشعري النحوي عند الفراء، في كتابه معاني الفراء، دراسة نحوية، رسالة قدمها الطالب عبد الهادي كاظم الحربي، جامعة بابل، إشراف صباح عطوي عبود، (2005)، ص.11.
- ⁵⁰ - نفسه، ص.11.
- ⁵¹ - إعادة قراءة القرآن، ص. 108.
- ⁵² - إعادة قراءة القرآن، ص. 109.
- ⁵³ - كقولهم مثلا أن محمدا غزا الشعر، وأن بعض مقاطع الشعر قد تتوافق مع السور القصيرة...، علما أنه لا توجد آية تامة أتت على وزن بيت شعري!!... إلى غير ذلك من الشبه التي لا تسلم له. بل هي مردودة على كفار قريش؛ بله جاك بيرك. انظر: ص 112، 111، 113، 125.

لائحة المصادر والمراجع:

- إعادة قراءة القرآن جاك بيرك، ترجمة وتعليق منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الثانية، حلب، (2005م).
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة، دار ابن كثير، دمشق (1416هـ، 1996م)،
- الشاهد الشعري النحوي عند الفراء، في كتابه معاني الفراء، دراسة نحوية، رسالة قدمها الطالب عبد الهادي كاظم الحربي، جامعة بابل، إشراف صباح عطوي عبود، (2005)

- المستشرقون وترجمة القرآن الكريم تأليف: محمد صالح البنداق، (بيروت، 1980م).
- الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق، محمد عبد الله دراز، طبعة، دار الحديث، القاهرة (1427هـ، 2006م).
- المزهري في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، الطبعة الرابعة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (1378هـ، 1958م)
- البرهان في علوم القرآن، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، بيروت، دار المعرفة (1391هـ، 1972م)
- المستصفي من علم الأصول لأبي حامد الغزالي تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (1993م).
- المستشرقون، نجيب العقيلي: الطبعة الرابعة، (القاهرة- 1946م)،
- موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، طبعة دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، (1993م)
- مجلة الترتيل، العدد الثاني، شتنبر 2014م إصدار الرابطة المحمدية للعلماء مركز الدراسات القرآنية.
- Rigis Blacher , Introduction au Coran, (Paris- 1947)
-